﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾ [الكهف: 77 - 78]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

لحظةُ الافتراقِ، بعد مرّاتِ الانطلاقِ

بعدما وقعَ من حوارٍ بين موسى عليه السلام والعبدِ الصّالح، حول قتْلِ الغلام، ثمَّ سؤالِه عليه السلام مُعترضًا ومنكِرًا، ثمَّ اعتذارِه مرَّة أخرى عَقبَ تذكيرِ العبدِ الصّالح له بما تعاهدا عليه مِنَ الصَّبر، وعدمِ السُّؤال، بعد ذلك واصلا سيرَهُما وانطلاقَهما؛ لينتقلا إلى عجيبةٍ جديدةٍ، وحوارٍ جديدٍ، قدِ انتهى بإعلان الفراقِ بينهما، وتأويلِ كلِّ ما وقع من أمورٍ والبدءِ في بيان حكمتِه، ومُفادُ ما قال له العبدُ الصّالح: "هذا التَّعرُّضُ منك مرارًا لما أفعلُ، سببُ الفراق بيني وبينك، وسأخبرك بحكمةِ هذه التَّصرُّفات الَّتي خفيَ عليك أمرُها، ولم تستطعْ صبرًا على ما خفيَ، حتّى تعرفَ حقيقتَه وسرَّه"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾: (طعم) أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ في تَذَوُّقِ الشَّيْءِ، يُقالُ: طَعِمتُ الشَّيْءَ طَعْمًا، ثُمَّ يُحْمَلُ على بابِ الطَّعامِ اسْتِعارَةً ما لَيْسَ مِنْ بابِ التَّذَوُّقِ، فيُقالُ: اسْتَطْعَمَني فُلانٌ الحَديثَ؛ إذا أَرادَكَ على أَنْ تُحَدِّثَهُ[2]، والطَّعم بالفتح: ما يؤدّيه الذَّوق، يقال: طَعْمُهُ مُرٌّ، والطَّعْمُ أيضًا: ما يُشْتَهى منه، يقال: ليس له طَعْمٌ، وما فلانٌ بذي

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 438.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طعم).

طَعْم، إذا كانَ غَثًّا، والطُّعْمُ بالضمِّ: الطَّعامُ[1]، وقد خصَّه بعضُ أهل اللُّغة بالبُرِّ خاصَّةً[2]، ومعنى ﴿ٱسْتَطْعَمَآ﴾، أي: طلبا طعامًا.

2) ﴿فَأَبَوْا۟﴾: أصلُ (أبي) يَدُلُّ على الامتناعِ، يقال: أَبَيْتُ الشَّيْءَ آباهُ، وقَوْمٌ أَبيّونَ وأُباةٌ[3].

وقيل: الإباءُ: شدَّةُ الامتناع، فهو أخصُّ من مُطلقِ الإباء؛ إذ كلُّ إباءٍ امتناعٌ من غيرِ عكسٍ، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [البقرة: 34] و﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: 8]، ومنه: رجل أَبيٌّ: ممتنعٌ من تحمُّلِ الضَّيم[4]، ومعنى ﴿فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، أي: امتنعوا امتناعًا شديدًا عن ضيافتهما.

3) ﴿يُضَيِّفُوهُمَا﴾: أصلُ (ضيف) الميلُ، يقال: ضِفْتُ إلى كذا، وأَضَفْتُ كذا إلى كذا، وضافَتِ الشَّمسُ للغروب، وتَضَيَّفَتْ، وضافَ السَّهمُ عنِ الهدف، وتَضَيَّفَ، والضَّيْفُ: من مال إليك نازلًا بك، وأصل الضَّيْفِ مصدرٌ، ولذلك استوى فيه الواحدُ والجمعُ في عامَّة كلامِهم، كما قال تعالى: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١﴾ [الحجر: 51] وقد يجمعُ، فيقال: أَضْيافٌ، وضُيوفٌ، وضيفانٌ[5]، ومعنى ﴿يُضَيِّفُوهُمَا﴾، أي: كان لهما عليهم حقُّ الضّيافة والإكرام، لكنَّهمُ امتنعوا حتى عن أصلِ الإطعام، ممّا يدلُّ على كمال دناءتِهم وشدَّةِ شكيمتِهم[6].

4) ﴿جِدَارًا﴾: (جدر) أَصْلانِ، الأَوَّلُ: الجِدارُ، وهو الحائِطُ، وجَمعُهُ جُدُرٌ وجُدْرانٌ، والثّاني: ظُهورُ الشَّيْءِ، نَباتًا وغَيْرَهُ[7]، والجِدار: الحائط، إلّا أنَّ الحائطَ يُقال اعتبارًا بالإحاطة بالمكان، والجدارَ يقالُ اعتبارًا بالنُّتوِّ والارتفاع، وجمعُه جُدُر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾، وقوله: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾[8].

5) ﴿يَنقَضَّ﴾: أصلُ (نَقَض) يَدُلُّ على نَكْثِ شَيْءٍ، ورُبَّما دَلَّ على مَعْنًى مِنَ المَعاني على جِنْسٍ مِنَ الصَّوْتِ، فيُقالُ لصَوْتِ المَفاصِلِ: نَقيضُها[9]، والنَّقْضُ: انْتِثارُ العَقْدِ مِنَ البِناءِ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (طعم).
(2) الرّاغب، المفردات: (طعم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أبي).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أبي).
(5) الرّاغب، المفردات: (ضيف).
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 139.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدر).
(8) الرّاغب، المفردات: (جدر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقض).

والحَبْلِ، والعِقْدِ، وهو ضِدُّ الإِبْرام، يقال: نَقَضْتُ البِناءَ والحَبْلَ والعِقْدَ، وقد انْتَقَضَ انْتِقاضًا، والنِّقْضُ المَنْقوضُ، وذلك في الشِّعْر أكثرُ، والنَّقْضُ كَذلِكَ، وذلك في البِناء أكثرُ[1]، ومعنى ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾: يكادُ أن يسقطَ[2].

6) ﴿بِتَأْوِيلِ﴾: أصل (أول) يدلُّ على ابْتِداء الأَمرِ وعلى انْتِهائِه[3]، و(تأويل) من الأَوَّل، أي: الرُّجوعُ إلى الأصل، ومنه: المَوْئِلُ للموضع الذي يُرجعُ إليه، وذلك هو ردُّ الشَّيء إلى الغاية المرادة منه، علمًا كان أو فعلًا، ففي العلم نحو: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7]، وفي الفعل كقولِ الشاعر:

وللنَّوَى قبلَ يومِ البَيْنِ تأويلُ[4]

ومعنى ﴿بِتَأْوِيلِ﴾، أي: بحقيقة الأمرِ وأصلِه فيما جرى من أفعال.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

لحظةُ الفراقِ، بسببِ تكرُّرِ العجلةِ في السُّؤالِ، مع الوعْدِ بكشفِ حكمةِ جميعِ الأفعالِ

واصلَ موسى ﷺ والعبدُ الصّالح السَّيرَ، حتّى وصلا بعد جُهدٍ ولَأْواءٍ، نفدَ فيها ما كان معهما من طعام إلى قريةٍ، فطلبا من أهلها طعامًا على سبيل البيعِ والشّراء، أو على سبيل الضّيافةِ، وهو حقٌّ يوجبُه العُرفُ للأضياف، لكنَّ أهلَ القرية امتنَعوا بشدَّةٍ عن إطعامِهما، "فوجدا فيها جدارًا مائلًا يكادُ يسقطُ، فنقضَه العبدُ الصّالح، وبناه حتّى أقامَه، قال موسى: لو شئتَ طلبَ أجرٍ على النَّقض والبناء؛ لفعلتَ، قال العبدُ الصّالح: هذا التَّعرضُ منك مرارًا لما أفعلُ، سببُ الفراق بيني وبينك، وسأخبرُك بحكمةِ هذه التَّصرُّفاتِ الَّتي خفيَ عليك أمرُها، ولم تستطعْ صبرًا على ما خفيَ، حتّى تعرفَ حقيقتَه وسرَّه"[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (نقض).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 156.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(4) الرّاغب، المفردات: (آل).
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 438.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ في الآية:

تنوُّعُ تأويلِ حرفِ المعنى، مُبينٌ عنِ الدَّلالةِ

الفاء مفيدةٌ للتَّرتيب والتَّعقيب، أي: أنّهما إنَّهما عقَّبا حوارَهما بالانطلاق، كما كان في المرَّتين السّابقتَين، وقيل: الفاء فصيحةٌ، أي: أنّها إنَّها عاطفةٌ ما بعدها على محذوفٍ قبلَها، قد أفصحتْ عنه، والتَّقديرُ: (جدِّدا الوصيَّةَ، واستقرَّ الأمرُ على ذلك، فانطلقا يَطلبان موضعَ استراحةٍ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ﴾ الآية)[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿فَٱنطَلَقَا﴾:

الانطلاقُ إلى غايةٍ مقصودةٍ، ديدنُ الأنبياءِ الرّاشدين

دلَّ التَّعبيرُ بالماضي ﴿فَٱنطَلَقَا﴾، على تحقُّقِ وقوعِ هذا الانطلاق منهما، والمعنى: أنَّهما "سارا منطلقَين إلى الغايةِ الَّتي أرادها موسى مِنَ العبدِ الصّالح؛ لأنَّ اللّه آتاه رحمةً من عنده، وعلَّمه من لدُنه علمًا"[2].

دلالةُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في السّياقِ الكريمِ:

التَّعبيرُ عن منتهَى ما وصلا إليه، في آخرِ الرِّحلةِ

﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا ابتدائيَّةٌ[3]، وحرفُ غاية وجرٍّ، كما في قوله: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾ [القدر: 5]، والمعنى: أنَّهما انطلقا "حَتَّى إذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ - هي أنطاكيَّةُ أو أيلةُ - اسْتَطْعَما أَهْلَها من شدَّة جوعِهما واحتياجِهما إلى الطَّعام، فأَبَوْا"[4]، وذلك توصيفٌ لجزءٍ مِنَ المشهد المشوِّقِ الَّذي اختُتمت به القصَّةُ.

سِرُّ ورودِ ﴿إِذَآ﴾ في السّياقِ المحكمِ:

إفادةُ (إذا) تحقُّقَ الوقوعِ، على سبيلِ الدَّلالةِ المجازيَّةِ لها

﴿إِذَآ﴾: ظَرْفٌ للزَّمانِ الماضي هُنا، ولَيْسَتْ مُتَضَمِّنَةً مَعْنَى الشَّرْطِ[5]، فلا تحتاجُ إلى جواب، مع أنَّ أصلَها الدَّلالةُ على المستقبل، ومِنَ المواضع الَّتي جاءت فيها دالَّةً على الماضي أيضًا، قولُه تعالى:

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 139.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4565.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 374، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 228.
(4) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/ 487.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 375.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ [يونس: 90]، وكأنَّها في هذه الحالة تدلُّ على ما تدلُّ عليه (إذْ) الَّتي تدخلُ على الماضي، فتفيدُ تحقُّقَ الوقوع، و(إذا) و(إذْ) قد تقع كلٌّ منهما موقعَ الآخر، فتدلُّ على ما تدلُّ عليه الأخرى، من ماضٍ أوِ استقبالٍ.

قال ابنُ مالك: وقد يراد بها - أي: بـ(إذا) - المضيُّ، فتقعُ موقعَ إذ، كقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩١ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [التّوبة: 91 - 92]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الجمعة: 11]، ومن ذلك قول الشّاعر:

حَلَلتُ بها وِتْري وأَدْرَكْتُ ثُؤْرَتي***إذا ما تَناسَى ذَحْلَهُ كُلُّ غَيْهَبِ[1]

وهذه الدَّلالةُ مجازيَّةٌ[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالإتيان دونَ المجيءِ أوِ الوصول:

الإتيانُ معبِّرٌ عنِ الوصولِ بسهولةٍ وقصدٍ

عبَّرَ بالإتيان دون المجيء؛ إشارةً إلى سهولة وصولِهما إلى هذه القرية، وأيضًا لتحقُّقِ القصدِ، فهما كانا قاصدَين أهلَ هذه القرية تحديدًا، لما سيترتَّبُ على هذا الإتيان من عجائبَ، "فالإتيان قد يقالُ باعتبار القصدِ، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يقال اعتبارًا بالحصول"[3]، وكذلك أيضًا لم يقل: (وصلا إلى أهل قرية)؛ إشارةً إلى نفس السَّبب، وهو أنَّ إتيانَهم لها كان على قصدٍ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿قَرۡيَةٖ﴾:

التَّعبيرُ بالقريةِ هنا، مُشعرٌ بالذَّمِّ والتَّعريضِ بأهلِها

عبَّر عنها هنا بالقريةِ دونَ المدينة؛ لأنَّه أدلُّ على الذَّمِّ، وذلك أنَّ مادَّةَ (قرا)، تدور على الجمع الَّذي يلزمُه الإمساكُ[5]، وظاهرُ

(1) ابن مالك، شرح التّسهيل: 2/ 212.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 271.
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (جاء).
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 96.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 113.

السّياق أنَّهم "كانوا أهلَ قرية لئامًا، وقيل: شرُّ القُرى التي لا يضافُ فيها الضَّيفُ، ولا يُعرفُ لابن السَّبيل حقُّه"(1).

دَلالةُ السّينِ في الفعلِ ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾:

ورودُ صيغةِ الفعلِ بما يُناسبُ السّياقَ، من فصيحِ البيانِ

السّينُ للطَّلب، والمعنى: طلبا طعامًا من أهلها؛ لما بهما من جوعٍ، وحيث لا يوجدُ بديلٌ عن هذا الطَّلب، فالأليقُ أن يكونا "طلبا الطَّعامَ منهم، إمّا لعدم وجود ما يشتريان به الطَّعامَ، أو لعدم الطَّعام المُشترَى في السّوق، أو غيرِ ذلك"(2)، وإلّا فإنَّ أهلَ الشَّرف لا يطلُبون، "وَفي الآيَةِ دَليلٌ على إباحَةِ طَلَبِ الطَّعام، لعابِرِ السَّبيلِ؛ لأَنَّهُ شَرْعُ مَنْ قَبْلَنا، وحكاهُ القُرْآنُ، ولَم يَرِدْ ما يَنْسَخُهُ"(3).

دَلالةُ موقعِ جملةِ ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾:

طباعُ السّوءِ غلّابةٌ، ولا فِكاكَ من تداعياتِها في السُّلوكِ

الجملةُ في محلِّ جرٍّ صفةٌ لـ ﴿قَرۡيَةٍ﴾(4)، وفي وصف القرية بهذه الجملةِ، إشارةٌ إلى"أنَّ لها مدخلًا في لؤمِ أهلها"(5)، "وألأمُ القُرى الَّذين لا يُقْرون الضَّيفَ، ولا يُطعمون ابنَ السَّبيل الَّذي يكونُ في مكان قدِ انقطع عنه زادُه، وإن كان غنيًّا في مكانه، فأجابوهما عنِ الاستطعام بالامتناع"(6)، وهو ما يدلُّ على سوء الطِّباعِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾:

اضطرارُ الضَّيفِ إلى الاستطعامِ، دليلٌ على أنَّ القومَ لئامٌ

قال السّيوطيُّ في بيانه: لو قال: (اسْتَطْعَماها) لم يصحَّ؛ لأنَّهما لم يستطعما القريةَ، أو (اسْتَطْعَماهُم) فكذلك؛ لأنَّ جملة ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾ صفةٌ لـ﴿قَرۡيَةٍ﴾ النَّكرةِ لا لـ﴿أَهۡلَ﴾، فلا بدَّ أن يكون فيها ضميرٌ يعودُ إليها، ولا يمكنُ إلّا مع التَّصريح بالظّاهر(7).

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 237.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 139.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 7.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 237.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 113.
(6) أبوزهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4566.
(7) السيوطي، الإتقان: 3/ 248.

وضْعُ المُظهرِ موضعَ المُضمرِ في لفظِ ﴿أَهْلَهَا﴾:

أظهرَ، ولم يُضمرْ، في قوله: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾، فلم يقل: (اسْتَطْعَماهُم)، ولعلَّ العدولَ فيه عن (اسْتَطْعَماهُم)، على أن يكون صفةً لأهل، لزيادة تشنيعِهم على سوء صنيعِهم، فإنَّ الإباءَ مِنَ الضّيافة، وهم أهلُها القاطِنون بها، أقبحُ وأشنعُ[1].

إباءُ أهلِ القرية عنِ الضّيافةِ، أسوءُ خُلقٍ وأكبرُ آفةٍ

وقيل: كُرِّرَ لفظُ ﴿أَهْلَهَا﴾، وأقيمَ الظّاهرُ مقامَ المُضمر للتّوكيد، كقول الشّاعر:

لا أرى الموتَ يَسْبِقُ الموتَ شيءٌ***نغَّصَ الموتُ ذا الغِنى والفقيرا

وقيل: التّكرار للتّأسيسِ، وذلك أنَّ الأهلَ المَأْتيّين، ليسوا جميعَ الأهل، إنّما همُ البعضُ؛ إذ لا يمكن أنْ يأتيا جميعَ الأهلِ في العادة في وقتٍ واحد، فلمّا ذَكَرَ الاستطعامَ؛ ذكره بالنِّسبة إلى جميع الأهل، كأنَّهما تَتَبَّعا الأهلَ واحدًا واحدًا، فلو قيل: استطْعَماهم؛ لاحتمل أنَّ الضَّميرَ يعودُ على ذلك البعضِ المأتيِّ دونَ غيرِه، فكرَّر الأهلَ لذلك[2].

إيثارُ لفظِ ﴿فَأَبَوْا۟﴾ على لفظِ (امتنعوا) هنا:

وآثرَ التَّعبيرَ بالإباء دون المنع، مع أنَّه منه؛ لدلالةِ كلمةِ الإباء على المنع الشَّديدِ وليس أيَّ منعٍ[3]، فالإباءُ أخصُّ مِنَ المنعِ، وأدلُّ على المعنَى المُستفادِ.

سِرُّ ورودِ التَّعبيرِ ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ بصيغة التفعيل:

يحتملُ أن يكون التَّفعيلُ في قوله: ﴿يُضَيِّفُوهُمَا﴾ للتَّكثير، على معنى: أنَّ من حقِّهما أن يُبالَغَ في ضيافتهما وإكرامِهما، وليس فقط أن يُضافا.

التَّفعيلُ للتَّكثير، تنبيهًا لحقِّ الضّيافةِ، في قريةٍ منعَ أهلُها أصلَ الضّيافةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 237.
(2) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 7/ 533، والبقاعيّ، نظم الدرر: 12/ 113.
(3) الكفويّ، الكليّات، ص: 28.

وقيل: أضافه، وضيَّفه بمعنًى واحدٍ، مثل: مَيَّله وأماله[1]، يعني: التَّفعيل والإفعال هنا بمعنًى واحدٍ؛ إذ لا معنى للتَّكثير هنا[2]، أي: لأنَّهم امتنعوا عن أصل الإطعامِ، أفيُعاتبون على منع الضّيافةِ المخصوصةِ؟

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (الضّيافة) دونَ (الإطعام):

التَّعبيرُ بالإضافة كنايةٌ عَنِ الإطعام، وفي الحقيقةِ هي أخصُّ منه

الإضافَةُ أخصُّ منَ الإطعام؛ لأنَّها إطعامٌ في المنزل على وجه الإكرام، قيل: هذه حَقيقَةُ الكَلام، ثمَّ شاعَ كنايةً عنِ الإطعام وبه يوفّى حقُّ الكرم، أي: الإضافَةُ هنا، بمعنى: الإطعام بدليلِ مجيء قوله: ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، مكانَ (أنْ يُطْعِموهُما)، مع أنَّه المسؤولُ، وإلّا فالإباءُ عن إضافَتهما، لا يستلزمُ الإباءَ عنِ الإطعام؛ إذِ الإباءُ عنِ الأخصِّ لا يستلزمُ الإباءَ عنِ الأعمِّ، مع أنَّ المُرادَ إباؤهم منَ الإطعام، سواءٌ كان في المنزل أم لا.

ولعلَّ التَّعْبيرَ به للإشارَة إلَى أنَّهما يَستحقّان أن يضيِّفوهما، وأن يُطعموهما في منازلهم على وجه الاحترام والإكرام، مع أنَّ هَؤُلاء القومَ أعرضوا عن إطعامِهم، ولو في غير منازلِهم، وفيه بيانُ كمالِ دناءتِهم، وشدَّةِ شكيمتِهم[3].

سِرُّ ورودِ الفاءِ في جملةِ ﴿فَوَجَدَا﴾:

ما أراد اللهُ إظهارَه، أحاطَه بعنايته، وقيَّضَ له من يَصونُه

الفاء عاطفةٌ ومفيدةٌ للتَّرتيب والتَّعقيب، ففي التَّعبيرِ بها دلالةٌ على أنَّهما وجدا هذا الجدارَ سريعًا، وهذه قدرةُ اللّه قَدْ أطلعتِ الرَّجلَ الصّالح، على ذلك الجدارِ المعيَّنِ الَّذي سيكونُ ترميمُه سببًا في حفظ حقوقِ اليتيمَين، وما وجَّهتْه القدرةُ، هدايةً وتوفيقًا، سيكونُ الاهتداءُ به يقينًا، وتنفيذُ المهمَّة المتعلِّقةِ به ميسورًا.

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 7/ 533.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 139.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 139.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿فَوَجَدَا﴾ دونَ غيره:

الَّذي يظهرُ أنَّه آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿فَوَجَدَا﴾، دون غيره كـ (رأيا - وأبصرا)؛ لأنَّ كلًّا منَ الرُّؤية والإبصار، إنَّما يكونان لما تقعُ عليه الحاسَّةُ سواءٌ كان مقصودًا، أم غيرَ مقصود، أمّا التَّعبيرُ بـ ﴿فَوَجَدَا﴾؛ فمُشعرٌ بأنَّ الموجودَ كان مقصودًا بالذّات، كما يقال: فلانٌ وجد ضالَّتَه، أو دابَّتَه، فإنَّ وُجدانَها كان مسبوقًا ببحثٍ عنها بالذّات، ومعنى هذا أنَّهما سارا على هُدًى وقصدٍ إلى هذا الجدار، وليس أنَّهما أبصراه، فأقامَه العبدُ الصّالح، بل قصداه، فأقامَه.

التَّعبيرُ بـ(وجدا)، مُشعرٌ بأنَّ الموجودَ، كان مقصودًا بالذّاتِ

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾ دونَ (وجدا فيهم):

وإنَّما قال: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾، أي: في القرية، ولم يقل: فيهم، إيذانًا بأنَّ المرادَ وصفُ القرية بسوءِ الطَّبعِ[1]، قال ابنُ عبّاس: "هي (إنطاكيَّةُ)"[2]، فطلبا طعامًا، وكان أهلُها لئامًا، لا يُطعمون جائعًا، ولا يَستضيفون ضيفًا، فامتنَعوا عن إضافتِهما أو إطعامِهما.

مِنَ المكانِ ما يُحيطُه اللهُ بحفظِه، ليحفظَ به ما يريدُ حفظَه

نُكتةُ مجيءِ الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ وتقديمِهما:

وفائدةُ التَّعبيرِ بشبْه الجملةِ ﴿فِيهَا﴾ النَّصُّ على كون هذا الجدارِ، كان في هذه القريةِ المذمومةِ دون غيرها، ولذا قدَّمَه على المفعولِ ﴿جِدَارًا﴾ لإفادةِ الاختصاص، والمعنى: أنَّهما وجدا في القرية حائطًا مائلًا، يوشكُ أن يقعَ، وأنَّ وجودَه لم يكن مُلفتًا للنَّظر، وكأنَّه كان مفقودًا في أبصار المارّين به، فوجدَه فقط من كلَّفَه اللهُ بترميمِه وإقامتِه، حتّى لا ينكشفَ السِّرُّ المخبوءُ في القريةِ المعيَّنة.

التَّقديمُ تخصيصٌ ذو غايةٍ دلاليَّةٍ مُفيدةٍ

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (الجدار) دون غيرِه كالحائطِ:

أوثرَ التَّعبيرُ بالجدارِ دونَ الحائط؛ لأنَّ الحائطَ يقالُ اعتبارًا

الجدارُ يقال لما ارتفعَ، وهو أنسبُ للانقضاضِ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 12/ 116.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 357.

بالإحاطة بالمكان، والجدارَ يقالُ اعتبارًا بالنُّتوِّ والارتفاع[1] والانقضاضُ متعلِّقٌ بالارتفاع، لا بالإحاطةِ.

بَلاغةُ السّياقِ بين الاستعارةِ والمجازِ العقليِّ:

التَّصويرُ البيانيُّ من بليغ التَّعبيرِ ورائعِه

مفهومُ الإرادةِ في قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ﴾ مجازٌ، وفيه احتمالان:

الأوَّل: الاستعارةُ التَّصريحيَّةُ التَّبعيَّةُ: فيكونُ قد شبَّهَ مُشارفةَ الجدار للانقضاض بالإرادةِ بجامع المَيلانِ، ثمَّ اسْتُعيرَت الإرادةُ للمُشارفة، اسْتعارَةً تبعيَّةً تصريحيَّةً، بتَشْبيه قُرْبِ انْقِضاضِه بإرادَةِ مَنْ يَعْقِلُ فِعْلَ شَيْءٍ، فهو يوشِكُ أَنْ يَفْعلهُ حَيْثُ أَرادَهُ، والقرينةُ المانعةُ اخْتصاصُ الإرادة، بذوي القوَّةِ الحيوانيَّةِ والبشريَّة[2].

والثّاني: المجازُ العقليُّ: وتحقُّقُه في إسنادِ الإرادةِ إلى الجدارِ، فهو مجازٌ في الإسنادِ.

معنَى ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن يَنقَضَّ﴾:

المَيلانُ إشرافٌ على السُّقوطِ، دون سقوطٍ فعليٍّ ناجزٍ

﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن يَنقَضَّ﴾ مصدريَّةٌ، وهي والفعلُ بعدها مصدرٌ مؤوَّلٌ، أي: يريدُ انقضاضًا، أي: إنَّ المصدرَ المؤوَّلَ هو مفعولُ الإرادة[3]، والجدارُ المذكورُ بناءٌ مرتفعٌ، يُريدُ أَنْ يَنْقَضَّ، أي: ينهدمُ ويسقطُ، والتَّركيزُ في الجملة على عمليَّة الانقضاضِ المحتملةِ بقرينة التَّهالكِ والقدمِ.

دَلالةُ الفعلَين المضارعَين ﴿يُرِيدُ﴾ و﴿يَنقَضَّ﴾:

إفادةُ الحالِ والاستقبالِ في الاستعمالِ

التَّعبيرُ بالمضارع في الفعلَيْن، للدَّلالة على قُرب حصولِ هذا الانقضاضِ، في المستقبلِ القريبِ، مع حصول الإرادةِ في الحال، وكأنَّه لمشارفته الانقضاضَ، تمَّ تصويرُ الحال على أنَّه إرادةٌ ومحاولةٌ منَ الجدار، لأجل حصولِه، وقد مضَى أنَّ ذلك على سبيل المجازِ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جدر).

(2) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 141، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 8.

(3) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 7/ 533.

دَلالةُ الفاءِ على السَّببيَّةِ في السّياق:

إقامةُ الجدارِ مرتبطةٌ بكونه آيلًا للسُّقوطِ

قولُه: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾، الفاءُ هنا مفيدةٌ للسَّببية، "لما فُهِمَ من قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، أنَّ الجدار منحرفٌ، قال: فأقامَهُ"[1]، أي: أقامَه بسبب انحرافه المعبَّرِ عنه مجازًا، بـ ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾:

التَّعبيرُ باللَّفظِ الأثيرِ في البيانِ، أولى مِنَ التَّعبيرِ بغيرِه

وإنَّما عبَّرَ بـ ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ دون غيرِه، كـ (بناه)؛ لأنَّ إقامةَ الشَّيء جعْلُهُ مُستقيمًا على أكمل وجْهٍ، كما هو السِّرُّ في التَّعبيرِ عن أداءِ الصَّلاة بإقامتها، لا بأدائها، في عادة القرآنِ الكريم في ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 277].

سِرُّ فصْلِ جملةِ: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ﴾:

تضمَّنَ التَّركيبُ معنَى السُّؤالِ عن عدمِ أخْذِ الأجرةِ

سِرُّ الفصلِ بين الجملةِ هذه وما قبلَها: هو ما بينَهما من شبْه كمالِ الاتِّصال، وهو قولٌ محمَّلٌ باللَّوم، والسُّؤالُ عن سبب عدم أخذِ الأجرِ، قال ابنُ عاشورٍ: "وَهَذا اللَّوْمُ يَتَضَمَّنُ سُؤالًا، عَنْ سَبَبِ تَرْكِ المُشارَطَةِ على إقامَةِ الجدارِ، عِنْدَ الحاجَةِ إلى الأَجْرِ، ولَيْسَ هو لَوْمًا على مُجَرَّدِ إقامَتِه مَجّانًا؛ لأَنَّ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الخَيْرِ، وهو غَيْرُ مَلومٍ"[2].

معنَى الحرفِ ﴿لَوْ﴾ في السّياقِ:

احتسابُ الفعلِ للهِ، أولى من أخْذِ الأجرةِ عليه

قولُه تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ﴾، ﴿لَوْ﴾ حرفُ شرطٍ غيرُ جازمٍ، ويقالُ له: حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ، أي: امتناعُ وقوعِ الجزاء؛ لامتناعِ وقوعِ الشَّرط، وقد كان للحرف ﴿لَوْ﴾ دورٌ في بيان المقصودِ منَ السّياق، حيث إنَّ "هذا قولُ موسى عليه السلام، لمّا رأى لُؤْمَ القوم وخِسَّتَهم، فقد طلبنا منهمُ الطَّعامَ، فلم يُطْعمونا، بل لم يقدِّموا لنا مجرَّدَ المأوى، فكيف نعملُ لهم، مثلَ هذا العمل دون أجرةٍ؟ وحيث إنَّ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 9.

الخَضرَ لم يشأ أَخْذَ الأجرة، فلم يقعْ هذا الفعلُ المحتملُ بلو، وامتنعَ أَخْذُها لامتناعِ مشيئةِ مَنْ يطلبُها.

المرادُ بالمشيئةِ في: ﴿لَوْ شِئْتَ﴾:

المشيئةُ تكونُ لما لا يتراخَى وقتُه مِنَ الأفعال

أي: لو أردتَ في حينه - قبلَ أن تقومَ بما فعلتَ - تحصيلَ الأجر أوِ المشارطةِ عليه؛ لكان لك هذا، فآثرَ التَّعبيرَ بالمشيئةِ دونَ الإرادة؛ لأنَّ "الإرادَة تكونُ لما لا يتراخى وقتُه، ولما يتراخى، والمشيئة تكونُ لما لم يتراخَ، والشّاهِدُ أنَّك تَقول: فعلتُ كَذا شاءَ أَو أَبى، فيقابلُ بها إباه، وذَلِكَ يكون عِنْد محاولة الفِعْل"[1].

نُكتةُ حذْفِ مفعولِ المشيئةِ:

إذا وقع فعلُ المشيئةِ في حيِّزِ الشَّرطِ فإنَّ مفعولَهُ يُحذفُ إيجازًا، وتقديرُ الكلامِ هنا: لو شئتَ أن تَتَّخِذَ شيئًا؛ لاتَّخذتَ عليه أجرًا.

سِرُّ استخدامِ اللّامِ في الفعلِ ﴿لَتَّخَذْتَ﴾:

جوابُ الشَّرط مُبينٌ للمعنَى في سياقِه المفيدِ

اللّامُ في قوله: ﴿لَتَّخَذْتَ﴾ هي الواقعةُ في جواب ﴿لَوْ﴾، حيث إنَّ جوابَها فعلٌ ماضٍ مُثبتٌ، والأكثرُ فيه أن تلزمَه اللّامُ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالاتِّخاذِ دون الحصولِ وغيرِه:

الاتِّخاذُ حَوزُ الشَّيءِ في الأثناء بلا تأخيرٍ

وآثرَ التَّعبيرَ بالاتِّخاذِ دونَ الحصول؛ لما فيه من معنى المجازاةِ والمقابلةِ، لما قاما به من إقامة الجدارِ المائلِ، فالاتِّخاذُ دالٌّ على هذا، ولأجل معنى المقابلةِ الظّاهرِ في التَّعبيرِ بالأخذِ، نرى القرآنَ الكريم يُؤثرُ التَّعبيرَ به للدَّلالةِ على الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ [النّحل: 61]، "فتخصيصُ لفظِ المؤاخذةِ تنبيهٌ على معنى المُجازاةِ والمقابلةِ، لما أخذوه مِنَ النِّعم فلم يُقابلوه بالشُّكرِ"[2].

وأمّا الحصولُ؛ فلا يتضمَّنُ معنى الجزاءِ والمقابلةِ الظّاهرَين في

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 124.
(2) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

لفظ الأخذِ؛ إذ هو يعني: جَمعَ الشَّيْءِ[1]، وأيضًا ما بَقيَ وثَبَتَ وذَهَبَ ما سِواهُ من حِسابٍ أو عَمَلٍ[2]، وليس شرطًا أن يكونَ ذلك المجموعُ أجرًا أو جزاءً، كذلك من تجلّيات إيثارِ لفظِ الاتِّخاذِ أنَّه يعني: حَوْزَ الشَّيء في الأثناء، ضمًّا أو قبضًا على غِلَظٍ مادّيٍّ أو معنويٍّ، كبدءِ السِّمَن في البعير[3]، وهو بذلك يعضِّدُ ما أفاده لفظُ المشيئة، من أخذ الأجرِ في حينه بلا تأخيرٍ، لضمان الحصولِ عليه، وخصوصًا من هؤلاء القومِ الَّذين أبَوا أن يُضيِّفوهما.

سِرُّ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ (على):

عبَّرَ بحرف الجرِّ (على)، لما فيه من معنى السَّببيَّةِ والتَّعليلِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: 185][4]، ولِما فيه من معنى الاستعلاءِ الَّذي جسَّده التَّفضُّلُ عليهم، بإقامة الجدارِ المائلِ.

أثـرُ الـحـرفِ في بـيـان التَّـعـليـلِ والاستعلاءِ

نُكتةُ مرجعِ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ وتقديمِه:

الضَّميرُ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ يعودُ إلى ما قام به من عملٍ، وهو إقامةُ الجدارِ المائلِ، أي: لو شئتَ؛ طلبتَ على عملك جُعلًا[5]، وفي تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول ﴿أَجۡرٗا﴾ إفادةُ الاختصاص، ولبيان أنَّ هذا الأجرَ كان بسببِ ما قام به من عملٍ، لا غير.

تقديمُ الضَّميرِ، يُفيدُ الاختصاصَ في السّياقِ

دَلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿أَجۡرٗا﴾ في السّياقِ:

وفي تنكير الأجر إشارةٌ إلى أنَّه أجرٌ كبيرٌ مُستحقٌّ، وإلى أهمّيَّتِه في وقت كانا فيه أحوجَ ما يكونان إليه.

دَلالةُ ورودِ جملةِ الأجرِ والمشيئةِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾، مضى أنَّ هذه

تخريجُ الجملةِ عـلـى الـكـنـايـةِ أوِ الـمـجـازِ، من بـلـيـغ الـفـهـمِ والاستعمالِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حصل).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (حصل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (أخذ).
(4) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 477.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 740.

الجملةَ متضمِّنةٌ سؤالًا وجَّهه موسى ﷺ للعبدِ الصّالح؛ بسبب تركِ أخذِ الأجرةِ على العملِ، وظاهرُه ليس بمرادٍ؛ إذ لا فائدَة في الإخْبار بفعله، فهو إمّا (مجاز أو كناية) عن ذلك السُّؤالِ أو إنشاءٌ له[1].

توجيهُ القراءةِ في قوله: ﴿لَتَّخَذْتَ﴾:

أهميَّةُ القراءةِ في بيان المرادِ منَ السّياقِ

قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿لَتَخِذْتَ﴾ بفتح التّاءِ وكسرِ الخاءِ، مِنْ: تَخِذَ يَتْخَذُ كتَعِبَ ويتعَبُ، والباقون: ﴿لَتَّخَذْتَ﴾، بهمزةِ الوصلِ وتشديدِ التّاءِ وفتحِ الخاءِ مِنَ الاتِّخاذ[2].

واختُلِفَ: هل هما مِنَ الأَخْذ، والتّاءُ بدلٌ منَ الهمزة، ثمَّ تُحْذَفُ التّاءُ الأولى، فيُقال: تَخِذَ، كتَقيَ مِن اتَّقَى نحو قول الشّاعر:

زيادَتُنا نُعْمانُ لا تَقْطَعَنَّها *** تَقِ اللّهَ فينا والكِتابَ الّذي تَتْلو

أم هما مِنْ: (تَخِذَ)، والتّاءُ أصيلةٌ، ووزنُهما فعِل وافْتَعَل – قولان – والفِعْلُ هنا على القراءتَين متعدٍّ لواحدٍ؛ لأنَّه بمعنى الكسبِ[3].

دَلالةُ الاستئنافِ البيانيِّ (شبْه كمالِ الاتِّصال):

الفراقُ مَلمحٌ لاكتمالِ المهمَّةِ، وشرحٌ لأسبابِ الأحداثِ المُلَمَّةِ

هذه الجملةُ: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ هي العهدُ بها هو نفسُ العهد، بكلِّ جُملِ المحاوراتِ والمقاولات، حيث تكونُ محمولةً على كونِها أجوبةً لأسئلةٍ مقدَّرةٍ، أي: فماذا قال العبدُ الصّالح، بعد أن قال له موسى ﷺ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، فكان الجوابُ: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

سِرُّ استعمالِ اسمِ إشارةِ القريبِ ﴿هَٰذَا﴾:

يُشارُ بالقريبِ لمن عهدُه قريبٌ، أو حضورُه في الذِّهنِ ماثلٌ

﴿هَٰذَا﴾ اسمُ إشارةٍ للقريبِ، ولعلَّ سرَّ إيثارِ التَّعبيرِ به، هو قربُ العهد بالمُشار إليه، وهو الوقتُ أوِ السُّؤال، ولمّا كان ذلك سببَ الفراق أو محلَّه،

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 142.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/314.
(3) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 7/ 535، والفارسيّ، الحجّة للقراء السّبعة: 5/ 163، وابن خالويه، الحجَّة في القراءات السّبع: 2/ 68.

سمّاه به مبالغةً[1]، وقيل: المُشار إليه الشَّرطُ الواقعُ بينهما، أي: هذا الإعراضُ سببُ الفراق بيني وبينك على حسب ما سبقَ من ميعادِه[2]، وقيل: الإشارةُ إلى الفراق الموعودِ بقوله: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾، فإنَّه صوَّرَه في الذِّهن، فأشار إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾، كأنَّه مُشاهَدٌ محسوسٌ، لحضوره في الذِّهن وتمييزِه على سبيل الاستعارة[3]، وذلك كما يقول المُصنِّفون: (هذا كتاب)، قبل تأليفِه، و(هذا أخوك) لتصوُّرِه وحضورِه في ذهنِه[4].

دَلالةُ الفراق في هذا السّياقِ:

إذا تعذَّرَ الاتِّفاقُ، فلا مندوحةَ مِنَ الفراقِ

المرادُ بالفراق بينهما، هو فراقُ الصُّحبة المفهومُ من قبلُ، عند تَكرارِ الإخلال بالشُّروط، من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾: "تُعدُّ دُستورًا مِنَ الحقِّ ﷻ، ودليلًا على أنَّ هذين المذهبَين لا يلتقيان، فيظلُّ كلٌّ منهما له طريقُه: المرتاضُ له طريقُه، وغيرُ المرتاض له طريقُه، ولا ينبغي أن يعترض أحدُهما على الآخر، بل يلزمُ أدبَهُ في حدود ما علَّمه اللّه"[5].

سرُّ إضافةِ الفراقِ إلى الظَّرفِ مجازًا:

إذا اختلفتِ الاتِّجاهاتُ؛ افترقتِ الوِجهاتُ

إضافةُ المصدر إلى الظَّرف اتِّساعٌ[6]، أي: على المَجاز للمُبالَغَة؛ لأنَّ (بين) هنا بمعنى الوصْلِ، وافتراقُ الوصلِ أبلغُ[7]، وقيل: هو مِنْ إضافَةِ المَوْصوفِ إلى الصِّفَةِ، وأَصْلُهُ: فِراقٌ بَيْني، أَيْ: حاصِلٌ بَيْنَنا[8].

نُكتةُ الفراقِ على السُّؤالِ الثّالثِ دون سابِقَيْه:

من تعجَّلَ في الجوابِ؛ أُغلقَ عليه البابُ

وقد ترتَّبَ الفراقُ على السُّؤال الثّالثِ دون السّابقَين عليه؛ "لأنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 117.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 97، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 211.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 143.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 126.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 14/ 8966.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 237.
(7) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 144.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 10.

السّابقَين ظاهرُهما منكرٌ، فكان معذورًا في السُّؤالِ بخلاف هذا، فإنَّه لا يُنكرُ الإحسانُ للمُسيء، بل يُحمَدُ"[1]، إضافةً إلى أنَّه عليه السلام هو الَّذي فتح البابَ، ومهَّد الطَّريقَ لهذا الفراق، حالَ توجُّهِه بالسُّؤال الثّالثِ بقوله: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾.

معنَى البَيْن في قوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾:

ارتهانُ الفراقِ البينيِّ على الاشتراطِ بدايةً، ونقضُ الالتزام نهايةً

والبينُ الصَّلاحُ الَّذي يكون بين المُصطحِبَين ونحوِهما، وذلك مستعارٌ فيه منَ الظَّرفيَّة، ويُستعمل استعمالَ الأسماء[2]، وقوله: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، بعد أن كان البينانِ بيْنًا واحدًا، لاتِّصالهما، فلا بيْنَ، فهو في الحقيقة فوقَ ما كان متَّصلًا من بينهما، أو فراقُ التَّقاولِ الَّذي كان بينهما، أي: الفراقُ الَّذي سببُه السُّؤال"[3].

نُكتةُ تَكرارِ البينيَّة في قوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾:

التَّكرارُ المفيدُ، غايتُه التَّوكيدُ

وكرَّرَ لفظَ (بين) عُدولًا عنِ الجمع بينهما، بلفظِ (بيننا) للتَّأكيدِ[4]، ومثلُ هذا قولُك: أخزى اللّه الكاذبَ مِنّي ومِنْكَ، فذكْرُ بيني وبينك ثانيةً توْكيدٌ، وهذا لا يكونُ إلّا بالواو، ولا يجوز: (هذا فراق بيني فبيْنِكَ)؛ لأنَّ معنى الواو الاجتماعُ، ومعنى الفاء أن يأتي الثّاني في إثْرِ الأوَّل[5]، وقيل: سببُ التَّكرير التَّوصُّلُ للعطف على الضَّمير المجرور[6].

بَلاغةُ إجراءِ الحذفِ على الاحتباكِ:

إثباتُ الفراقِ في السّياقِ بأبلغِ بيانٍ وأدقِّه

وقد يتنزَّلُ الحذفُ على طريقة الاحتباكِ، والأمرُ فيه أظهرُ، كما يذكر البقاعيُّ، وتقديرُه: (فراق بيني وبينك، كما أخبرت، وفراق بينك من بيني كما شرطت)، وقد أثبتت هذه العبارة الفراق على

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 126.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 534، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 211.
(3) البقاعيّ نظم الدّرر: 12/ 117.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 534، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 211.
(5) الزجّاج، معاني القرآن: 3/ 304.
(6) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 446.

أبلغِ وجهٍ، وذلك أنَّه إذا وقع فراقٌ بيني من بينك، بحائلٍ يحولُ بينهما، فقد وقع منك بطريق الأولى[1].

سرُّ فصلِ جملةِ ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ عن سابقِها:

انقطاعُ الكلامِ السّابقِ، هو سرُّ الفصلِ عنِ اللّاحقِ

وفصلَ بين هذه الجملة والَّتي قبلها لانقطاعِ الكلام، ثمَّ استئنافِ كلامٍ جديدٍ، فـ"السّين في قوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾، مفرِّقةٌ بين المحاورتَين والصُّحبتَين، ومُؤْذنة بأنَّ الأولى قدِ انقطعت"[2]، وقيل: الجملةُ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنافًا بَيانيًّا، واقعةٌ جَوابًا لسُؤالٍ يَهْجِسُ في خاطِرِ موسَى ﷺ، عَنْ أَسْبابِ الأَفْعالِ الَّتي فعلها الخَضِرُ ﷺ، وسَأَلَهُ عَنْها موسَى، فإنَّهُ قَدْ وعَدَهُ أَنْ يُحْدِثَ لَهُ ذِكْرًا، مِمّا يَفْعَلُهُ[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ دونَ غيرِه:

النَّبأُ خبرٌ ذو فائدةٍ، يحصلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ سائدةٌ

أوثرَ التَّعبيرُ بالإنباء دونَ غيرِه، كالإعلام والإخبار، لما يتضمَّنُه معنى النَّبأِ من عِظمِ الخبر، فالنَّبأُ هو الخبرُ العظيمُ أمرُه، الجسيمُ تأثيرُه، قال الرّاغبُ: النَّبأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يحصلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا يقالُ للخبرِ في الأصل: نَبَأٌ، حتّى يتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ[4].

دَلالةُ الباءِ في شبْه الجملةِ ﴿بِتَأْوِيلِ﴾:

إذا عُرِفَ السَّببُ؛ بطلَ العجبُ

الباءُ في قوله: ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ للإلصاقِ أو للتَّعدية، ومعناها مع مجرورها: "﴿بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بترجيعِ ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، لمُخالفتِه عندك الحكمةَ إلى الحكمةِ، وهو أنَّ عند تعارضِ الضَّررَين، يجبُ ارتكابُ الأدنى، لدفع الأقوى، بشرطِ التَّحقُّقِ"[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 117.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 534.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 10.
(4) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 118.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿بِتَأۡوِيلِ﴾:

حين جُلّيَ التَّأويلُ، استبانَ موسى فحوَى ما فعلَ وما قيلَ

التَّأْويلُ: تَفْسيرٌ لشَيْءٍ غَيْرِ واضِحٍ، فكأنَّه لعدمِ وضوحِه، يحتاجُ إلى جهدٍ في سبيلِ بيانِه، وإيضاحِ المقصودِ منه، وهو مُشْتَقٌّ مِنَ الأَوْلِ وهو الرُّجوعُ، وقد شَبَّهَ تَحْصيلَ المَعْنَى على تَكَلُّفٍ بالرُّجوعِ إلى المَكانِ، بَعْدَ السَّيْرِ إليه[1]، وفحوَى الإنباءِ بالتَّأويلِ، إخبارُكَ بتَأْويلِ الأمورِ الَّتي قد أنكرتَ عليها، واعترضتَ مُفتتحًا مستعجلًا، بحيث لَم تَسْتَطِعْ عليْه صَبْرًا، حتّى أحدِّثك، وأَبينك سرائرَها[2].

دَلالةُ ﴿مَا﴾ الموصولةِ في السّياقِ:

التَّعريضُ بلومِ موسَى عليه السلام، لعدمِ صبْرِه على البيانِ

﴿مَا﴾ اسمٌ موصولٌ، وفي صِلَةِ المَوْصولِ مِنْ قَوْلِه: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، دون أن يقال بتأويل ما فعلت أو بتأويل ما رأيت ونحوهما، تَعْريضٌ باللَّوْمِ على الاسْتِعْجالِ وعَدَمِ الصَّبْرِ إلى أَنْ يَأْتيَهُ، حَسْبَما وعَدَهُ بقوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾ [الكهف: 70][3]، ويجوزُ أن يقال: إنَّ ذلك لاستثارةِ مزيدِ توجُّهه وإقبالِه، لتلقّي ما يُلقَى إليه[4].

سِرُّ ورودِ النَّفي في جملةِ: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع﴾:

قلبُ نفي المضارعِ إلى الزَّمنِ الماضي للإبانةِ عنِ المرادِ

دخولُ ﴿لَمْ﴾ النّافيةِ الجازمةِ على المضارع ﴿تَسْتَطِع﴾، أحالت معنى المضارع إلى الزَّمنِ الماضي، أي: سأخبرُك بتأويل كلِّ ما مضى، وأظهرُ لك حكمتَه، ممّا سألتَ عنه، ولم تكن صابرًا، حتّى أبيِّنَه لك كما تعاهدْنا.

نُكتةُ ورودِ شبْهِ الجملةِ ﴿عَّلَيْهِ﴾، وتقديمِها:

التَّقديمُ مفيدٌ في استكناهِ الدَّلالةِ، ومراعاةِ الفاصلةِ الفاصلةَ

في قولِه: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، قدَّمَ شبْهَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 10.
(2) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 1/ 488.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 10، 11، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 331، 332.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 331، 332.

الجملةِ ﴿عَّلَيۡهِ﴾ على المفعولِ ﴿صَبۡرٗا﴾؛ لأنَّ ذلك أدعَى للاهتمام[1]، ولمراعاة الفاصلة[2].

تنكيرُ لفظِ ﴿صَبۡرٗا﴾ في السّياق:

الصَّبرُ مفتاحُ ما يُرجّى، وغايةُ ما يُؤمَّلُ

نكَّر ﴿صَبۡرٗا﴾ لإفادة العموم؛ لكونه نكرةً، وقعت في سياق النَّفي، فتفيدُ العمومَ، والمعنى: لم تُطقْ كلَّ ما يُسمّى ﴿صَبۡرٗا﴾، قليلًا كان أو كثيرًا، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾، "أي: بما لم تصبرْ على ظاهرِه، وبعاقبتِه، وهو خلاصُ السَّفينة مِنَ اليد العاديةِ، وخلاصُ أبويِّ الغلام من شرِّه، مع الفوزِ بالبدل الأحسنِ، واستخراجِ اليتيمَين للكنز"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإتيانُ والمجيءُ:

الإتيانُ مجيءٌ بسهولةٍ، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يقال اعتبارًا بالحصولِ

قد فُرِّقَ بينَهما بأنَّ (جاء) يقالُ في الجواهر والأعيانِ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ [يوسف: 72]، و(أتى) يقالُ في المعاني والأزمان، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَتِىٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1][4].

وقال الرّاغبُ: "والمجيءُ كالإتيان، لكنَّ المجيءَ أعمُّ؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، وأمّا الإتيانُ، فقد يقالُ باعتبار القصْدِ، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا بالحصول"[5].

الإطعامُ والضِّيافةُ:

الضّيافةُ أخصُّ مِنَ الإطعام، فكلُّ ضيافةٍ إطعامٌ، وليس كلُّ إطعامٍ ضيافةً

أصلُ الضَّيْفِ الميلُ، يقال: ضِفْتُ إلى كذا، وأَضَفْتُ كذا إلى كذا، وضافَتِ الشَّمسُ للغروب، وتَضَيَّفَتْ، وضافَ السَّهمُ عنِ الهدف، وتَضَيَّفَ، والضَّيْفُ: من مال إليك نازلًا بك[6]، والضّيافةُ أخصُّ منَ الإطعام؛ لأنَّ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4568.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 144.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 51.
(4) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 365.
(5) الراغب، المفردات: (جاء)، والزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 80 وما بعدها.
(6) الراغب، المفردات: (ضيف).

الإطعامَ يتحقَّقُ، بأقلِّ ما يُسمّى إطعامًا، ولو باللُّقمةِ، أمّا الضّيافةُ؛ فلها أصولُها، ولها خصوصيَّتُها وآدابُها، وعلى هذا فالنِّسبةُ بينهما، هي العمومُ والخصوصُ المطلقُ، فكلُّ ضيافةٍ إطعامٌ، وليس كلُّ إطعامٍ ضيافةً.

الإباءُ والمنعُ:

كلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناع إباءً

الإباءُ هو امتناعٌ باخْتيارٍ، وأبى الشَّيْء، لم يرضَه، وأَبى عليْهِ، امتنع، وهو غيرُ الاستكبارِ.

وكلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناع إباءً، فإنَّ الإباء شدَّةُ الامتِناع، وإباءُ الشَّكيمة مثلٌ فيهِ، ويُقال: أَبى على فلان، وتأبّى عليْهِ؛ إذا امتنع[1].

الانقضاضُ والسُّقوطُ:

التَّعبيرُ بالسُّقوطِ، أقوَى مِنَ التَّعبيرِ بالانقضاضِ

الانقضاضُ هو من قولهم: انْقَضَّ الحائطُ: وقع[2]، والمعنى المحوريُّ للَّفظِ: اختراقُ صُلْبٍ أو كَسْرُه تفتيتًا أو نحوه، وانقضَّ الجِدارُ: تَصَدَّع، ولم يَقَعْ بعد[3]، وقوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، يُفهم منه أنَّه كان مائلًا، ولم يقع بعدُ، ولذلك أمكن تقويمُه وإقامتُه، ربَّما بإصلاح أسبابِ الاعوجاج فيه، وقيل: معناه يريدُ أن يتفتَّتَ كالحصى[4].

والسُّقوطُ: طرحُ الشَّيء، إمّا من مكان عالٍ إلى مكان منخفضٍ، كسقوط الإنسانِ منَ السَّطح[5]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: 25]، وعلى هذا فالتَّعبيرُ بالسُّقوط أقوَى منَ التَّعبير بالانقضاضِ؛ لأنَّ السُّقوطَ يكونُ من عُلوٍّ إلى سُفلٍ، بحيث لا يمكن تداركُه، ولذا عبَّر بالانقضاض دون السُّقوطِ.

(1) الراغب، المفردات: (أبى)، والكفوي، الكليات، ص: 28.
(2) الرّاغب، المفردات: (قض).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (قضض).
(4) السّمين الحلبي: الدّر المصون: 7/ 533.
(5) الرّاغب، المفردات: (سقط).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»